الفصل الأول

نظرة عامة حول التربية الإسلامية

* تقـــديم :

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية . على أن يستندوا على التربية فى توجيه حياتهم • غير أن التربية بهذا الشكل كانت تقليدية محضة . مما أكد من وجهة النظر الحديثة . ضرورة جعل التربية تأخذ شكلا آخر . وجعلها طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية . ومرتبطة بمشكلات الفرد والجماعة . ومرآة يرى المجتمع فيها نفسه . ويؤكد فيها ذاته •

والمجتمع الذى ينتظم جزء كبير من أفـراده فى مراحل التعليم المختلفة . لابد وأن يصبح التعليم قوة حاسمة فى تحديد شكل هـذا المجتمع • والتربية بهذا تؤدى دورها على مستوى الفرد والجماعة . وتؤكد ارتباطها بمشكلات المجتمع ومقدراته •

والتربية الحقيقية هى التى تؤدى دورها فى بناء المجتمع • ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ؛ تنطلق فيه طاقات الأفـراد وتستثمر فيه قدراتهم ؛ ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد طبيعية الى طاقات تكون فى خدمة الانسان المعاصر •

ومن هنا فان الأثر الذى تحدثه التربية فى المجتمع هو المقيـاس الحقيقى لمدى فعالية النظام التعليمى . داخل المجتمع بصرف النظر عن حجم هذا النظام • والتربية بهذا تهدف بالدرجة الأولى ؛ الى تنمية الفرد بشكل كامل عقليا وبدنيـا وروحيا وعاطفيا وجماليا واجتماعيا وأخلاقيا وثقافيا وسياسيا •• الخ •

واذا صح كل ما تقدم فلا شك أن الجانب التطبيقى السلوكى يحتل وسط تلك الاغراض المكان الاول . وخصوصا أن السلوك هو المحك الاساسى لقياس مدى استيعاب الفكر النظرى . وقدرة الفرد على التخلق بما ثبت فيه من ركائز أصبحت سمة من سمات حياته . وصفة مميزة فى تعامله مع أقرانه من بنى البشر .

واذا كانت العلاقات بين الأفراد هى التى تكشف عن مضمون مدى ستيعاب الادراك الواعى لأغراض التربية ؛ بما تشتمل عليه من تطبيق عملى لتلك الأغراض . فما هى نظرة الاسلام الى تلك الجوانب السلوكية وأهميتها فى تربية الانسان المسلم ؟ وقبل ذلك ؛ ما هو الاطار النظرى العام للتربية الاسلامية .. ؟

هذا ما سوف نناقشه فى هذا البحث آخذين فى الاعتبار أننا سوف نسوق الحديث عن واقع وحال التربية الاسلامية بشكل اجمالى . كما سنعطى نموذجا وحيدا ؛ من أساليب التربية فى الاسلام ؛ تاركين التفصيل الموسع . والشرح المفصل لمناسبة أخرى ؛ وعسانا وقتها نكون قد وفقنا الى كشف النقاب عن أسرار جديدة . حول ما تعانيه التربية الاسلامية سواء على أيدى كتاب فى التربية مسلمين أو على أيدى غيرهم من التربويين ممن لا يعتنقون الاسلام . وقبل كل شىء وبعده . فان النية خالصة لله رب العالمين ؛ أن يكون هذا البحث مفتتحا وليس خاتمة ؛ وبدءا وليس نهاية (فالمجال على حد علمى خلو من الكتابة المتخصصة التى تعتمد على أصول من كتاب الله وسنة رسوله . وتراعى فى نفس الوقت الحيطة فى التفسير للكتاب الكريم ؛ والتحليل لمواقف الاسلام من القضايا التربوية) .

وعموما فأول الغيث قطرة ؛ وعسى الله أن يأتى بالفتح ويهيىء لمجال التربية الاسلامية من يدفع عنها غائلة الدخلاء عليها . المنبثين داخل أفنائها . من يحاولون أن يثروا ثراء أدبيا أو ماديا على حسابها . وان غدا لناظره قريب ؛ وعسى ذلك أن يكون قريبا .

* * *

* التربية الاسلامية .. لمـاذا ؟

بادىء ذى بدء فلا غرابة ونحن على أبواب هذا البحث . أن نقرر أنه لا يوجد بين جميع النظم التربوية قديمها وحديثها نظام تربوى

استطاع أن يولى اهتمامه للانسان من جميع جوانبه العقلية والروحية والبدنية . سوى نظام واحد هو التربية الاسلامية .

وان كان المنطق والتفكير العلمى يحتمان بالضرورة طرح المقدمات وتحليلها من أجل الوصول الى النتائج فاننا لن نجافى الحقيقة حينما نضع هذه النتيجة المسبقة قبل الخوض فى حيز الدليل والبرهان .

ومن غريب الأمر أن يطرأ حتى على ألسنة بعض المثقفين . لا أقول التشكيك ولكن أقول لبس فى الفهم أو خلط فى التفكير . فتراهم يقولون : لماذا التربية الاسلامية .. ؟ أو بشكل آخر : ما هى الاضافة التى سوف تضيفها بحوث صممت أو تصمم فى مجال التربية الاسلامية .. ؟

والواقع أن نظرة حول النظم الفلسفية الأخرى سواء القديم منها أو الحديث ترينا أن تلك الأنظمة لم تفلح فى وضع اطار عام تربوى فبعضها قد عالج الجانب المادى . والبعض الآخر قد عالج الجانب الروحى فقط وسوف نسوق فى هذا المجال بعض الأدلة على ذلك :

فأفلاطون استخدم الفلسفة كمبرر لحياة الترف فى المجتمع كما استخدمها للدفاع عن القيم الأخلاقية والسياسية لطبقته الاجتماعية . كما وجد أن قيم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة متأصلة فيما يسمى بالبناء أو التركيب الخالد للعالم وبذلك خول أفلاطون لنفسه تنحية هذه القيم عن متناول الفحص والنقد والنقاش . من جانب الفرد العادى فى المجتمع وقصر البحث فى تلك القضايا على الفلاسفة وعلى الذين يتمتعون بوقت الفراغ ؛ ومن هنا يمكن أن نستنبط تفسير كل فلسفة أفلاطون سواء فى نظرية المعرفة فى العالم ؛ فى الكون ؛ فى الأخلاق ؛ فى السياسة التربوية .

ونخرج بتلك النتيجة أن الفلسفة عند أفلاطون لم تكن حبا للحكمة كما أنها لم تبرأ من التحيز بل انها تهدف منذ البداية الى خدمة وظيفة اجتماعية محددة[1] .

وحينما نصل الى العصور الوسطى فاننا نلمح أن الفلاسفة المدرسيين قاموا بتبرير المعتقدات التى أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة وبالتالى فانهم أكدوا أولوية الايمان على التفكير وسمو الحقائق التى

---

(١) صادق سمعان . الفلسفة والتربية . محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية ؛ دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٦٢ ص ١٥ .

تدور حول الدين على الحقائق العلمية ، ومن هنا أطلقوا ذلك المصطلح ان « الفلسفة خادمة للدين » ..

كما اننا أيضا نشاهد فى العصور المسيحية التالية . أن جزءا من الفلسفة كان عبارة عن محاولات لوضع العلم فى مكان محدد بحيث لا يغطى على القيم الدينية . وبالتالى لا يؤثر على وضع نفوذ رجال الدين .

أما فى القرن التاسع عشر . فلقد وصل الاتجاه نحو التبرير الى درجة كبيرة خصوصا على يد هيجل الذى برر باسم المثالية العقلية المذاهب التى كادت أن تهددها بروز الروح العلمية وظهور الاتجاه الجديد نحو الحكومة الشعبية[٢] .

وفى أحضان الفلسفة الوجودية نرى أنها فلسفة ذاتية ميتافيزيقية غير علمية وتأبى دائما من الاتجاه الاجتماعى . وأكثر من ذلك فالقلق واليأس والفشل كل أولئك مظاهر الوجود فى نظرهم . والوجوديون لايعيرون اهتماما لمشكلات الحياة العلمية . لأنها لا قيمة لها . بالاضافة الى أنها قد تصرف الانسان عن التفكير فى الموت الذى هو فى نظرهم غاية تجذب الوجود كله تجاهها[٣] .

ونظرة حول تلك الفلسفات ترينا أن الاتجاه التقليدى للفلسفة يهتم بالبحث عن طبيعة الحقيقة المطلقة النهائية ؛ والتأمل فى طبيعة الأشياء فى ذاتها كما أننا نلحظ أن التشكيك فى قيمة الفلسفة نابع من الفلاسفة أنفسهم هل يقتصرون فقط على مناقشة المسائل العقلية النظرية أم يزاولون الاسهام فى الجوانب العملية للمشكلات .

ومن عجيب الأمر أن نرى بعض الفلسفات مثل الوجودية تحمل بين طياتها مقومات فشلها وعجزها عن الاتساق مع الحياة ؛ اذ كيف تنفصل تلك الفلسفة الانسان عن متطلبات الطبيعة الانسانية ؛ وكيف تتنكر لما يصلح النفس البشرية ويضمن لها الحياة الكريمة ناهيك عن جعل تلك الحياة وسيلة لحياة أخرى أزلية .

* * *

(٢) المرجع السابق ص ١٨ (٣) المرجع السابق ص ١٣

* نظرة الاسلام الى الفلسفة :

لما لم تخل الفلسفة من تركيزها على هدم نظريات علمية سابقة أو موازية لها ولما كان التشكيك يحتل جزءا كبيرا من منهج الفيلسوف ولما كانت القيم والعقائد يشوبها التشكيك عن طريق الفيلسوف المتحمس فى غالب الأحيان لفلسفته الخاصة . لذلك فقد يجد الشباب أنفسهم مضطرون الى اتباع فكر هذا الفيلسوف أو التفكير باستقلاليتهم فى فلسفة أخرى خاصة تناسبهم . أقول : لما كان ذلك . بات واضحا مدى أهمية التربية الاسلامية كاطار نظرى وعملى صالح للفرد والمجتمع يمارس الفرد من خلاله ما يصلح شئون دينه ودنياه كما يرى المجتمع أنه بتبنيه نظرية التربية الاسلامية .. قد انصاع الى أعلى الفلسفات : وأصدق المعتقدات .. وكيف لا !! وهى قد اشتقت من مصدرين كريمين : كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من تمسك بهما فقد هدى الى صراط مستقيم ومن تنحى عنهما ضل فى متاهات الظلم والظلام **« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى »**[٤] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى » .

ومن هنا نرى التوافق العجيب . والتنسيق المبهر ؛ بين متطلبات الطبيعة الانسانية للفرد المسلم وسائر الحياة كلها بما ومن فيها . وكذلك نرى التوفيق بين مصالح المسلم فى دنياه وفى أخراه فالاسلام اذ يرغب فى عمل الصالحات من أجل الآخرة . فانه أيضا يفتح الباب فى استثمار الحياة الدنيا استثمارا فى الخير للانسان وللجماعة ؛ ملاحظا أن يبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين »**[٥] .

وهكذا أقر الاسلام العمل فى الدنيا من أجل الآخرة . كما يبدو جليا كيف أن الاسلام بنظامه التربوى عنى بأمور الفرد والمجتمع جميعا ؛

---

(٤) طه : ١٢٣ ــ ١٢٦ (٥) القصص : ٧٧

بل وفتح باب الاجتهاد بالرأى . فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة . وفيما لا يتعارض مع أصل العقيدة . كما أننا نلمح أن الاسلام قد اختص قوما بالحكمة واختارهم الله سبحانه وتعالى من بين سائر خلقه **« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »**[٦] .

والحكمة هى « لبـاب كل خير . بحيث ان الانحراف عنهـا . أو التحريف فيها . أو زخرفتها بشبهة من الرياء : خروج عن رحاب الجادة . ودخول فى مزالق الباطل »[٧] .

وبهذا المفهوم نجد انفراد الاسلام . بالنظرة التكاملية للانسان . بينما نرى كثيرا من الفلاسفة يقصرون نشاطهم على جوانب نظـرية جدلية . ويبتعدون عن ميادين الصراع فى قضايا المجتمع .

وبهذا يبدو أن البرج العاجى للفلسفة . أو الانعزالية الفلسفية من دواعى التأكيد على عدم امكانية قيام الفلسفة أو وفائها بمتطلبات الكائن البشرى . فى الوقت الذى نلمح فيه أن اختلاف الفلاسفة . راجع الى اختلاف القيم والأهداف التى يؤمنون بها . « ويجب ألا نتوقع استبعاد هـذا الخلاف فى الفلسفة اللهم الا اذا اجتمع الفلاسفة على القيم والأهـداف الاجتماعية وعلى أساليب وطرق النقـد والتحليل الاجتمـاعى »[٨] .

وهذا مما يدعم بل يؤكد أن ثبات قيم الاسلام ومناهجه مع امكانية المرونة فى اتخاذ الأساليب المعينة على التنفيذ مما يزكى انفراد نظرية التربية الاسلامية عن سائر النظريات بالدوام والصلاحية . لكل مجتمع فى أى زمان أو مكان . وأن تلك النظرية قد عالجت فى الانسان الجانبين البدنى والروحى .

* * *

* نظرة الاسلام الى العقل :

العقل بما أوتى من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها ويضع العلاقة بينها ؛ كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها . والعقل فى كل هذه العملية لا يصل الا الى نتائج ربما يرجع عنها مع التقـدم

---

(٦) البقرة : ٢٦٩

(٧) ابن الخطيب . اوضح التفسير ص ٥٧ (ب .

(٨) صادق سمعان . مرجع سابق ص ٢٥

العلمى المستمر والعقل بهذا نظرا لاعتماده على الحواس التى كثيرا ما تخدع . لا يصل الى حقائق الأشياء . بل يصل الى وصفها فقط . وما كان كذلك كان عاجزا عن وضع المنهج المتكامل للانسان .

واذا وصلنا الى هذه النقطة . فاننا نشاهد أن هذا العقل منوط بثلاثة أصناف من البشر : صنف متبلد الفكر . متحجر الفهم يقف عند حد النهم فهو انسان شره لا يلقى بالا الا للمطعم والمشرب وكفى .

وصنف آخر ربما يحظى بقدر من الذكاء غير أنه يستثمره فيما يجر له نفعا . ويجلب عليه عائدا ماديا ؛ ولا شك أن هذين الصنفين من البشر لا خير فيهم . ولا يملكون قدرة على افادة المجتمع ؛ فضلا عن التقنين ووضع الاطار الفكرى .

أما الصنف الثالث فهم العلماء . ومهما تعددت تخصصاتهم . وتفردت مذاهبهم ؛ فاننا وبلا أدنى شك نضعهم فى المرتبة الأولى . وكيف لا ؟ وهم الصفوة المختارة وأصحاب العقول المفكرة ونسأل :

هل فى مكنة هؤلاء العلماء والفلاسفة . أن يقننوا للبشرية اطار ومنهجا دينيا يصلح لكل زمان ؟

والحقيقة التى تبقى هى أن قضايا الحب والاخاء والمساواة وتحقيق القدر الكافى من الأمن للانسانية ؛ ما كانت لتقدر على تقنينه عقول الفلاسفة أو العلماء أو المفكرين ؛ مهما أوتوا من علم ومهما وصلوا الى صواب فى بعض القضايا العلمية . ومن هنا فلا يوجد بين نظريات الفلاسفة نظرية واحدة . صلحت أن تكون دستورا لمن عاصر هذا الفيلسوف من الجماعة ؛ فضلا عما تلاه من عصور ؛ أو لحقه من أجيال . وربما بدا فى بعض العصور انبهار بعض المجتمعات وخصوصا فى قطاع الشباب . ببعض نظريات فلسفية لفيلسوف معين ؛ وقد تستمر تلك النظرية تؤدى دورها فى قيادة المجتمع ؛ طالما أن هناك من يحاول تلقينها للأفراد ؛ ولكن قد يحدث أنه بعد فترة زمنية محددة ينكشف أمام المجتمع سلبيات تلك النظرية وعجزها عن تحقيق الأمن والعدل والحب والاخاء والمساواة .

واذا ثبت بهذا أن العقل البشرى قد عجز فى المجال الدنيوى ؛ وفى عالم المحسوسات ؛ فلا شك أنه يكون أشد عجزا فى مجال الجانب الغيبى ؛ ولا شك أنه عاجز عن معرفة كنه ذاته ؛ وعن معرفة حقيقة الروح التى هى قوام حركته كما هو عاجز عن ادراك ما وراء الموت

ومصير الانسان . وسائر القضايا الغيبية الأخرى من بعث وحساب وجنة ونار .. الخ .

وعلى هذا فاننا أن نقرر فى اطمئنان كامل أن الدين الذى هو الركيزة الأساسية للتربية ليس من تصميم العقل . وانما هو من صنع الخالق القادر . من لدن حكيم عليم . سميع بصير . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . يعلم السر وأخفى ..

ومن هنا فان الدين يوقف الانسان على حقائق تعجز عنها القوانين الوضعية التى بخطىء من يعتقد أنها تأتى بسلوك سوى كامل متكامل ؛ أو أنها ترقى الى حقيقة الدين الذى هو من عند الله .

* * *

* التربية الاسلامية حقيقة :

وعلى هذا الأساس . ومن هذا المنطلق . فانه لمن العبث كل العبث ومن الخطأ كل الخطأ أن نتأرجح بين فلسفات غربية أو شرقية . لا هى اسلامية ولا هى قرآنية . أقول : من العبث . لأننا وقد شاهدنا عجز الانسان عن التقنين للبشرية بما يسعدها وما يربيها . وما ينظم حياتها ؛ أحرى بنا أن ننظر فى تراثنا . نستمد منه مقومات حياتنا . ونستعين به على فلسفة أمور مجتمعنا .

ومن هنا فلا نكون قد جانبنا الصواب اذا قررنا أن للاسلام نظرية تسمى التربية لاسلامية . واذا كنا اليوم نبدو كما لو كنا نجافى هذه النظرية . فهذا ليس راجعا فى حد ذاته الى عيب فى النظرية التربوية الاسلامية — وحاشاها أن يصاحبها عيب أو يلازمها خلط — بقدر ما هو راجع الى عيب فينا نحن المسلمين . وفى مدى استجابتنا لتلك النظرية . ومن قدرتنا على التطبيق .

أفبعد هذا يتطرق الشك — عند من يساورهم الشك — نحو تربية مصدرها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ أيتطرق الشك نحو تربية استمدت وحى كل عناصر مقوماتها من السماء ؟

لا شك أن الخالق المبدع ؛ أقدر على وضع الأسس والمبادىء ؛ والقوانين التى تضمن للانسان سعادته .

وعلى هذا فان الاسلام هو الدين العالمى الوحيد ؛ الذى انفرد الى السبق . فى تصميم اطار نظرى وعملى متكامل يصلح للتطبيق كما يستهدف الانسان كله ؛ روحه وجسده ظاهره وباطنه .

هذا فى الوقت الذى نرى فيه أن التربية الوضعية . قد تهتم بالجانب الحسى . والذى يقوم على اهمال كل ما يعدو الحس ويفارق المحسوس ويؤمن ايمانا راسخا بكل ما تراه العين وتحسه النفس . فوضع من التربية وأساليبها . كل ما ينظم الجوانب الحسية والحياتيه من زراعة وصناعة وتعليم وتشييد بصرف النظر عن أية جوانب أخرى تكون من متطلبات الطبيعة الانسانية والجماعات البشرية .

أما الاسلام فانه يربى الانسان كانسان بصرف النظر عن البيئه التى ينتمى اليها . وبصرف النظر عن الأسرة التى استمد منها مقومات حياته . وبهذا يكون الاسلام قد غض الطرف عن الأحساب والانساب . والغنى والفقر . ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه . ويسعى فى ذلك فى مساواة كاملة وفى عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الدلالة . أننا نلمح فى هذا القرن العشرين . والذى ارتقت فيه الحياة المادية . ووصلت الى ذروتها من جراء الفكر المعاصر أن الانسانية لم تنعم بعد بثمرة هذا الرقى وذلك التقدم . حيث ان التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو للجانب المادى فقط . مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصلية والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار الأمراض النفسية .

كما أننا نلمح أيضا الاحساس بالضياع بين القطاع الكبير من الشباب والفتيات على المستوى الدولى والعالمى .. وكيف لا ؟

وتلك الاتجاهات المادية . الماركسية منها والوجودية والبراجماتية لا تولى وجهها الا شطر التعامل مع الانسان كمادة ؛ فلا تؤمن تلك المذاهب الا بها . فالانسان فى نظر الماركسية (ترس) فى آلة كبيرة اسمها المجتمع .

كما لا يخفى ما للوجودية من أثر بغيض فهى التى أطلقت للانسان العنان باسم الحرية ؛ وتأكيد الذات . ليتخبط فى القلق وحيدا بلا وازع من ضمير أو خلق أو قوة عليا وتركته ليعتصره الصراع .

وان ننس لن ننسى البراجماتية ؛ التى تؤكد فى غير ما حياء ولا خجل أن كل ما جر نفعا ماديا عاجلا أو آجلا فهو الحق . وما عداه فهو الباطل .

ولعل النتيجة القريبة لتلك الاتجاهات ؛ ربما تنعكس فى تحقيق هدف مادى دنيوى يتمثل فى امتلاء المعدة بالطعام والشراب ؛ كما يتمثل فى توفير المسكن والملبس وسائر الكماليات .

غير أن الحقيقة تبقى مدوية . أن هذه الاتجاهات تنتج حتما وبالضرورة نوعا من التخبط . ونوعا من القلق والسقوط . الذى أصبح من أهم سمات هذا العصر . والذى كان نتيجة حتمية للتعامل مع الانسان كمادة .

والواقع أن الانسان مادة وروح . وبينما الجزء المادى يشده الى الأرض فان الجزء الروحى يسمو به الى السماء .

أفبعد هذا يمكن للعقل البشرى أن يضع أطارا دينيا أو منهجيا يمكنه أن يحقق التوازن بين الجانبين ؟

الواقع وكما سبق أن ألمحنا أن العقل . أثناء تعامله مع الكون يستمد المعلومات من المادة عن طريق الحواس . السمع أو البصر أو الشم أو اللسان أو غيرها . ولما كان لتلك المعلومات دلالة خاصة . فان نقلها الى العقل عن طريق تلك الحواس يخضع لمؤثرات كثيرة . تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تزويد العقل بمعلومات يشوبها التشويش . ويسيطر عليها الخلط . واذا تركنا هذا جانبا لنرى أنظمة أخرى . اتجهت شطر الجانب الروحى الذى يقوم على العناية بالروح . وترك كل شىء يتصل بالحس . حينئذ ندرك ضرورة وأهمية التربية الاسلامية التى وضعت فى المقام الأول الانسان بكيانه كله . جسمه وروحه وعقله . واعترفت أن الانسان مجموعة من هذه العوامل كلها . وأنه كيان واحد مترابط الأجزاء .

وعلى هذا الأساس فان التربية الاسلامية حقيقة لا تحتاج الى دفاع وحق لا يقبل الجدل . غير أننا أردنا فى هذا الجزء أن نطرح بعض الخيوط حول تلك النظرية لتكون بمثابة قاعدة قوية ننطلق من خلالها نحو اعطاء نموذج وحيد تطبيقى يكون بمثابة ضرب المثل ؛ لنماذج عملية أخرى فى المنهج الاسلامى ؛ نماذج تضمنت التشريعات الخاصة ببناء الأسرة . سواء فيما يتعلق بالعلاقة الزوجية ؛ أو ما يتعلق بتربية الأبناء والبنات . كذلك تناولت تلك النماذج العلاقات الانسانية . فيما يتصل بسياسات الدول . والعلاقات على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات .

وفى ظل نماذج التربية الاسلامية نلمح درجات عالية من سمو الجانب الأخلاقى سواء على مستوى الفرد ؛ أو على مستوى التعامل مع الجماعة . حتى فى مجال المعاملات أعطى الاسلام نماذج عديدة لصيانة أفراد المجتمع من الفقر والتخلف وكانت فريضة الزكاة من أركان الاسلام التى ضمنت حفظ الحياة لقطاع كبير من أبناء الأمة من الفقراء

« **والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم** »[٩] ومنهج التربية الاسلامية بذلك الأسلوب يبنى المجتمع المسلم القائم على احترام العلاقات بين الأفراد . « والمجتمع الاسلامى هو مجتمع انسانى : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد فى الدرجة الأولى •• كما يدعو الى تبادل المصالح المادية . ولكن فى محيط العلاقات الانسانية »[١٠] .

وسوف نستعرض بالتحليل لموقف نموذجى من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : كان فيه معلما ومربيا •

هذا الموقف هو : « مسرح الأحداث فى حديث الافك » •

وتكمن مبررات اختيارنا لهذا النموذج فى :

(ا) التعليم بالقدوة والذى يتركز فى الجانب الأخلاقى للرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك الأحداث « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** »[١١] .

(ب) السلوك الواجب اتباعه فى مواجهة الشائعات المغرضة والأكاذيب المدعاة •

(جـ) العلاقات الوالدية . وكيف تستثمر لصالح الدين والدنيا •

(د) العلاقات الزوجية . وكيف يمكن أن نؤمن صيانتها ونحافظ عليها بالرغم مما قد يبدو فى الأفق من ضباب أو غيوم حول أحد الزوجين •

(هـ) التريث فى اتخاذ القرارات خصوصا اذا كانت تتعلق بمصير الفرد الانسان •

* * *

*** بين يدى حديث الافك :**

بداية نهى الاسلام عن الغيبة ، وطلب من المسلم والمسلمة التحرى فى القول . وعدم تصديقه الا بعد التأكد من صحته وحتى عند التأكد من صحته نهى الاسلام عن ترويجه أو التشهير به وعدم الخوض فيه ، جلبا للمصالح ودرءا للمفاسد ، وتجنبا لأمور قد تتطور الى ارتكاب مخاطر كبيرة •

---

(٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

(١٠) « منهج القرآن فى تطوير المجتمع » مكتبة وهبة ١٩٧٩ ط ٢ ص ٤

(١١) الاحزاب : ٢١

ولا شك أن هذا جانب رئيسى فى أخلاقيات الاسلام . يرتبط ارتباطا جوهريا بروح التربية الاسلامية التى تهدف الى بناء الانسان المسلم . والقرآن الكريم فيما يتعلق بحديث الافك . قد ذكر فى عشر آيات متتاليات من سورة النور وقائع هذا الدرس التربوى . وما كان من خوض بعض المسلمين جريا وراء من روج للشائعات — فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النور :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم »[١٢] .

وفى هذا المقام يذكر الامام ابن كثير : « هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن أم المؤمنين رضى الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت . والفرية التى غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : **« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم »** أى جماعة منكم . يعنى ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم فى هذه اللعنة — عبد الله بن سلول — رأس المنافقين . فانه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين .

---

(١٢) النور : ١١ — ٢٠

فتكلموا به . وجوزه آخرون منهم وبقى ذلك الأمر قريبا من شهر حتى نزل القرآن . وبيان ذلك فى الأحاديث الصحيحة »[١٣] .

ولا شك أن هذه الواقعة فيها نهى ولفت للأنظار أن يتحرى المسلم الصدق فى كل ما يقول أو يفعل .

والاسلام فى هذا يهدف الى بناء العلاقات الانسانية على أسس تربوية سليمة ولا شك أن ما نشاهده فى عالم اليوم . من هدر للكرامة ، وتحقير للفرد الانسان . كان نتيجة حتمية للتطرف الأخلاقى وعدم الالتزام بالسلوك السوى .

والقرآن الكريم . فى أكثر من موضع يشير الى أن الفتنة أكبر وأشد من القتـــل « **والفتنة أكبر من القتل ...** »[١٤] .

يفسر المفسرون الفتنة فى الآية بأنهـــا الكفر والشرك . والكفر يكون باللسان كما يكون بالأفعال المخالفة لشرع الله .

وحينما نعيش أحداث هذه الواقعة فاننا نجد أنفسنا أمام درس تربوى .

ـــ المعلم فيه هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسلوبه مع زوجته عائشة وأسلوبه مع أصحابه . ثم منهجه الذى اتبعه فى علاج أخطر ما يمكن أن يصاب به المرء فى أهله . وأيضا حسن الصنيع مع أبى بكر وهو مع ما له من منزلة وقدم صدق فى الاسلام .

ـــ والمتعلم من هذه الواقعة . هم المسلمون والمسلمات جميعا فى شخص من عايش هذه الواقعة من الصحابة وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا أم المؤمنين عائشة وكيف واجهت فى صبر وقوة تحمل هذا الأمر الجلل . وكيف صمدت أمام هذا البهتان صمود الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات .

ـــ والمنهج المستخدم فى هـــذا الدرس التربوى هو الاستقرائى التحليلى . حيث لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمور تسير جريا وراء الهوى ولكن فى ثبـــات الصـــادقين وفى عزم النبيين جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلومات من أصحابه وخدامه ، حتى أنزل الله عليه قرآنا يتلى فكان مسك الختام . لأعظم اختبـــار للنبى

---

(١٣) محمد على الصابونى « مختصر تفسير ابن كثير » المجلد الثانى ص ٥٨٧

(١٤) البقرة : ٢١٧

صلى الله عليه وسلم فى أهله وصدق الله العظيم حيث يقول : **« الله أعلم حيث يجعل رسالته »**[١٥] .

وقد كانت ام المؤمنين عائشة ضمن من خرج فى غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن خرج سهمها فى قرعة أجراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته . خرجت عائشة رضى الله عنها من خبائها تفتش عن عقدها الذى انقطع من صدرها . ولما عدت الى مكانها وجدتهم قد رحلو ظانين أنها فى هودجها ؛ ومن ثم مكثت فى مكانها فنامت .

تقول عائشة : وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس[١٦] من وراء الجيش . فأدلج[١٧] فأصبح عند منزلى . فرأى سواد انسان نائم . فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان رآنى قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه[١٨] حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى . والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته . فوطىء على يدها فركبتها . فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتين الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى[١٩] وكان الذى تولى كبره « عبد الله بن أبى سلول »[٢٠] .

وهذا الدرس التربوى فى بيت النبوة . فى حد ذاته يحمل بين طياته عوامل تبرئة أم المؤمنين مما لحق بها . اذ كيف يتصور عاقل . أن يرتكب مسلم ومسلمة الفاحشة ثم يستعرضان راكبين أو راجلين . أو أحدهما راكبا والآخر مرتجلا أمام الناس ؛ وكأن لسان حالهما يطلبان كشف ما انستر وظهور ما أبهم . وبالرغم من ذلك فلقد انغمس البعض فى الحديث وتورطوا فيما نهى عنه الاسلام .

والواقع أننا نوجز الحديث فى هذا الأمر لأن امتثال هذه المواقف الحكم الفصل فيها هو رب العالمين . ولذلك فالتبرئة تتم فى هذا النموذج العملى من قبل رب العباد . السميع ؛ اللطيف . الخبير الذى يعلم السر وأخفى .

---

(١٥) الأنعام : ١٢٤

(١٦) عرس من التعريس وهو الاقامة ليلا .

(١٧) فادلج : سار ليلا .

١٨ باسترجاعه : ردد دعاء فى مقام الاستغراب مما رآه .

(١٩) فهلك من هلك فى شأنى : قالوا ما به استحقوا الهلاك .

(٢٠) مختصر ابن كثير . مرجع سابق ص ٥٨٧

ومن عجيب الأمر أن عائشة رضى الله عنها . تمكث شهرا لا تدرى عن حديث الافك شيئا . غير أنها تلمح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدم لها اللطف الذى كانت تراه منه خصوصا عندما يعتل بدنهـا أو تشتكى . وهذا هو الذى كان يريبها •

واذا كان الاسلام يدعو الى التأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم والذى كان خلقه القرآن . فان لنا فى صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهـا . لأعظم درس تربوى من خير رسـول •

فالمعلم الأول : محمد صلى الله عليه وسلم . لم يشأ أن يفجأ او يفجىء زوجته عائشة بالواقعة رغم علمه بما يتنـاقله البعض فى شأنهـا . ولكنه يضبط نفسه انتظـارا لمـا تسفر عنه الاستقراءات والتحليلات وهذا يتم بنمط تربوى سليم •

وعندما علمت عائشة بحـديث الافك . ما كان الا أن استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذهب لأبويها •

تقول عائشة : « فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما . فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمتاه •• ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بنية •• هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها •• قالت فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى »(٢١) •

* * *

* المنهج الاستقرائى فى المعالجة :

رأينا كيف تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبر ورباطة جأش لمدة شهر أو يزيد ما كان من حديث الافك . لم يغير فى سلوكه مع زوجته . ولم ينفعل ولم يصبه ما يمكن أن يصيب غيره فى مثل هذا الموقف . وخصوصا اذا كان فى موقف القائد ؛ كما أنه لم يلق باللوم على أحد بعينه ولكنه استخدم منهج الاسـتقراء وهو تتبع الواقعة وأبعادها كما رويت عن أصحابه صلوات الله وتسليماته عليه •

---

(٢١) مختصر ابن كثير ، المرجع السابق ص ٥٨٨

تقول عائشة : « فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم « علي ابن أبي طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبث الوحي . يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله . وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله .. أهلك ولا نعلم الا خيرا ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله .. لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وان تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : « أي بريرة .. هل رأيت من شيء يريبك من عائشة » ؟ فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه . فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول . فقالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين .. من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا . وما كان يدخل على أهلي الا معي » . فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله . ان كان من الأوس ضربنا عنقه . وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية . فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه . فانك منافق تجادل عن المنافق . فتثاور الحيان الأوس والخزرج . حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٢٢] .

كل هذا والمعاناة تشتد بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وتبكي بكاء يفلق الأكباد وتستأذن عليها وهي على تلك الحال امرأة من الأنصار فتأذن لها عائشة فتبكي المرأة لبكاء عائشة رضي الله عنها . وبينما هي كذلك دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت :

---

٢٢) المرجع السابق ص ٥٨٨

ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى شىء .

قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس . ثم قال : « أما بعد . يا عائشة .. فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه . فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : والله لقد علمت . لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم انى بريئة والله يعلم أنى بريئة . لا تصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى . فوالله ما أجد لى ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف : **« فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »**[٢٣] قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى . قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى[٢٤] ببراءتى . ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى . ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٢٥] عند الوحى حتى انه لينحدر منه مثل الجمان[٢٦] من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل

---

(٢٣) يوسف : ١٨

(٢٤) مبرئى . تعنى أن الله سوف يبرئها وعائشة بهذا تزداد ثقتها بربها . غير انها رغم تعجلها فى طلب البراءة فانها لم تكن لتتوقع أن ينزل فى شأنها قرآن يتلى . فمبرئى هنا توقع عائشة أن يبرئها الله .

(٢٥) البرحاء : الشدة .

(٢٦) الجمان : الفضة . أى أن العرق تصبب منه فى لون الفضة أو الدر .

عليه قالت : فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة . أما الله عز وجل فقد برأك »(٢٧) .

وهكذا يسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج الاستقراء فيتتبع الخبر من اجارية ثم يتتبع الوسيلة المناسبة للعقاب من الصحابة . ولا يهمل صاحبة الشأن .. فيطيب خاطرها بل ويفتح لها مجال التوبة . وأيضا موقف عائشة من صبرها وتحملها وعدم تبرمها حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته الأولى وموقفها حينما حاولت أن تستنطق أبويه لعلهما يردان عنها غائلة الافك . وفى تواضع الصفوة المختارة من المسلمين الصادقين وأصحاب قدم الصدق فى الاسلام يجيبان بما يندر أن نجده من أبوين فى مثل ظروفهما : والله ما نجد ما نقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ولذا فلقد بدا واضحا أن المعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد الحق فيسلك المنهج التتبعى من أجله وأن عائشة تصمد فى أدب وتواضع الزوجة الصالحة الرشيدة المؤمنة المستوثقة .. فلم تصرخ ولم تتهيج وانما تواضعت تواضع التلميذ من أستاذه .

وأبو بكر وزوجه حريصان أن يراقبا الدرس العملى فى ايمان الصادقين المستوثقين فى الله وفى رسوله والحريصين على محبة معلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

والجميع ينشد الحق . والحق الذى لا مراء فيه ولا جدال حوله . والجميع يترقب وعلى الله قصد السبيل طالما صدقت النية وخلصت لله رب العالمين واستكمالا لهذا الدرس العملى فاننا نلمح أن الطبيعة الانسانية بما ركب فيها من دوافع نفسية ونوازع فيها جانب شيطانى قد يكون أحيانا كامنا فى النفس البشرية غير أنه يبدو على السطح فى الوقت المناسب أقول : نلمح أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه يعتريه نوع من روح الانتقام الأدبى والمادى ممن تسبب فى الترويج لحديث الافك وهو مسطح بن أثاثة بعد أن نزل قرآن يتلى ببرىء عائشة رضى الله عنها مما التصق بها .

تقول عائشة رضى الله عنها : « فلما أنزل الله فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه . وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره :

---

(٢٧) المرجع السابق ص ٥٨٩

والله لا أنفق عليه شيئ بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : **« ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »**(٢٨) .

فقال ابو بكر : بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى . فرجع الى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه ابدا »(٢٩) .

ونلمح فى هذا السلوك القدوة الصالحة المتمثلة فى مسلك أبى بكر الصديق رضى الله عنه تجاه مسطح بن أثاثة كما نلمح العفو والمسامحة وعدم اللجوء الى الانتقام من الظالم خصوصا اذا كان الانسان فى موقف قوى يتيسر فيه منهجية العفو **« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »**(٣٠) .

بهذا العرض لنموذج عملى فى مجال التربية الاسلامية الرشيدة يمكننا أن نستنتج السمات السلوكية الصحيحة التى يجب أن يتخلق بها الانسان المسلم :

١ ــ الالتزام بالصدق فى القول والوفاء بالعمل .
٢ ــ الحذر والحيطة فى تقبل المعلومات .
٣ ــ البعد عن مظان الشبهات .
٤ ــ عدم السرعة فى اصدار الاحكام .
٥ ــ استخدام منهج الاستقراء فى علاج المشكلات .
٦ ــ التقصى الى أبعد مدى فى سبيل الوصول الى الصواب .
٧ ــ التسلح بالصبر فى الأمور المعضلة .
٨ ــ استنباط الأمور بالشكل العلمى السليم .

* * *

(٢٨) النور : ٢٢
(٢٩) مختصر ابن كثير . مرجع سابق ص ٥٨٩
(٣٠) آل عمران : ١٣٤